جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

الشَّذَرَاتُ السِّيْرِيَّة في مَقَالاتِ حَسَنِ الهُوَيمل
دِرَاسَةٌ في المَوضُوعِ و الفَنِّ

Biographical Fragments In The Articles Of Hassan Al-Huwaimel A Study Of The Subject And Art

إعداد

د/ سليمان بن فهد المطلق

قسم الأدب والبلاغة والنقد-كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
المملكة العربية السعودية

(العدد الثالث والأربعون)
(الإصدار الرابع-نوفمبر)
(الجزء الرابع (١٤٤٦هـ /٢٠٢٤م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) *2536- 9083*
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢٤/٦٢٧١م

الشَّـذَرَاتُ السِّيْـريَّـة فـي مَقَـالاتِ حَسَـنِ الهُوَيمـل دِرَاسَـةٌ فـي المـوضُـوْعِ و الفَـنِّ

سليمان بن فهد المطلق

قسم الأدب والبلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود، الإسلامية المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: *solumanbenfahed@gmail.com*

ملخص

يتحدَّث البحث عن السيرة الذاتية المبثوثة في مقالات الدكتور: حسن بن فهد الهويمل، وقد بُدئ بمقدمة عرَضَت الدراسات السابقة، وتعريفًا للسيرة الذاتية، وبيَّنت منهج الدراسة. ثم أُفرد مدخلٌ يُبيّن رأي الهويمل في السيرة الذاتية، وفي كتابتها. وبعد ذلك جاء الحديث عن موضوعات السيرة المقالية، وعن الفنِّ في السيرة المقالية، ثم خُتِمت الدراسة بالنتائج التي توصّل البحثُ إليها.

ثم إنِّي قد نهجتُ في هذا البحث المنهج الفني/ الموضوعي؛ بعد التأمل في المضامين المدروسة، التي رأيتُ مناسبة المنهج لها، مع عدم وجود دراسة تناولت الموضوع على الشكل الذي سأدرسه، وهذا في حدود علمي.

الكلمات المفتاحية: الشَّذَرَاتُ السِّيْرِيَّة, حَسَنِ الهُوَيمل, الموضُوْعِ , الفَنِّ.

Biographical Fragments In The Articles Of Hassan Al-Huwaimel A Study Of The Subject And Art

Sulaiman bin Fahd Al-Mutlaq
Department of Literature, Rhetoric and Criticism, College of Arabic Language, Imam Muhammad bin Saud Islamic University, Kingdom of Saudi Arabia

Email: *solumanbenfahed@gmail.com*

Abstract

The research talks about the autobiography broadcast in the articles of Dr. Hassan bin Fahd Al-Huwaimel. It began with an introduction that presented previous studies, defined the autobiography, and explained the study methodology. Then, an introduction was devoted to explaining Al-Huwaimel's opinion on the autobiography and its writing. After that, the discussion came about the topics of the essay biography and the art in the essay biography. Then, the study was concluded with the results that the research reached. Then, I adopted the artistic/thematic approach in this research; after contemplating the studied contents, which I saw as appropriate for the approach, with the absence of a study that addressed the topic in the manner that I will study, and this is to the best of my knowledge.

Keywords: ***Biographical fragments, Hassan Al-Huwaimel, subject, art.***

المقدمة:

في الدفاتر نهرٌ من الأحبار التي غرف منها الغارفون، ونهل منها الناهلون، فكتبوا على السطور ما أملته الذاكرة، وما خاطته السنون والأيام. وكُلٌ يدلي بحسب تاريخه، وبراعة خطِّه، وطريقة خُطَّته. ومن هؤلاء: د. حسن بن فهد الهويمل، الذي جابَ الحياة، وقطع فيافي الأيام قارئًا، وكاتبًا، ومتأمِّلًا، ومسافرًا في رحلة نفسيةٍ، أو حقيقية. وكنتُ أقرأُ أمانيه في كتابة سيرته، وأستشعرُ تطلعات أحبابه في رؤيتها واقعا. ثم أبحَرَتْ به الحياة، ولمّا يأتنا تأويل السيرة، فعزمتُ جمْعَ أطرافها مما أملته ذاكرتُه، فكَتبَه ونَشَره. وأعرف أنَّ ما جمعتُه من القليل الذي لا يحكي السيرة، ولا يروي المسيرة، فكتاباته الصحفيَّة ممتدَّة، ومضامينها لا يُحيط بها بحثٌ محدود، لكنه إشعاعٌ يَشِي، وقبسٌ من نور، حتى يأتي فرَجُ الله بسيرة مكتوبة، موعودة.

ثم إنّي قد نهجتُ في هذا البحث المنهج الفني/ الموضوعي؛ بعد التأمل في المضامين المدروسة، التي رأيتُ مناسبة المنهج لها، مع عدم وجود دراسة تناولت الموضوع على الشكل الذي سأدرسه، وهذا في حدود علمي.

أمّا الدراسات التي سَبقَت، فكانت:

١- كتاب: نقد الشِّعر عند حسن الهويمل، للباحث: سلامة بن دخيل الله الدخيل الله، وكانت الدراسة قائمة على تحليل مشروعه النقدي تنظيرًا وتطبيقا[١].

٢- بحث بعنوان: التشظي والالتحام في تقميشات الهويمل السيرية الصحفية، للباحث: طلال الثقفي، وهي قريبة من هذه الدراسة مضمونًا لا شكلا، وقد

(١) صدر هذا الكتاب عن دار الثلوثية، الرياض، ط:١، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.

جاءت خاصة بسلسلة مقالات الهويمل في (تقميشاته)، خلافًا للتوسّع الذي عمِدَت إليه هذه الدراسة؛ مما يعطي أُفُقًا أوسع في مقاربة السيرة المقالية[١].

٣- بحث بعنوان: استدعاء التراث في المقالة السعودية (حسن الهويمل) نموذجًا، للباحث: غانم بن سليمان الغانم، وهو بحثٌ قائم على سبر أغوار التناص في مقالات الهويمل، مع التراث الديني، والتاريخي، والأدبي[٢].

وبهذا يتبيَّنُ جدَّة الموضوع، وأنَّه مُعبِّد لسلسلة مُتَّسعة، تُلملم السيرة من أطرافها. وإنَّه ليحسُن قبل عرض موضوعات السِّيرة التي أبانتها المقالات- الحديثُ عن مفهوم السيرة الذاتية، ومعالمها في القديم والحديث، وعن الشروط الواجب تحققها في كاتب السيرة، وغير ذلك مما سيتَّضح، ويستبين.

فالسيرة في اللغة: "الطريقة، أو السُّنَّة، والهيئة. و(سار) الوالي في الرعيَّة سيرة حسنة، وأحسن (السير)، وهذا في سير الأولين[٣].

أمَّا تعريف السيرة الذاتية اصطلاحًا، فقد أورده (ستاروبنسكي)، في قوله: "سيرة شخص يرويها بنفسه"[٤]. وقد استخرَجَ من هذا التعريف السيرةَ الغيريَّةَ بقوله: "يرويها بنفسه"، لكنَّ قوله: "سيرة شخص"، تجعلنا متسائلين عن تفاصيل هذه السيرة،

---

(١) نشرته مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، مجلد: ٣١، عدد: ١٢٠، ٢٠٢٠م، ص:٤٧٣-٤٩٩.

(٢) نشرته مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة المنيا، مجلد: ٩٦، عدد:١، يناير٢٠٢٣م، ص:١٤٩-١٨٢.

(٣) أدب السيرة الذاتية، عبدالعزيز شرف، الشركة المصرية العالمية للنشر، د.ط، ١٩٩٨م، ص: ١١.

(٤) نقلًا عن: سيرة الغائب-سيرة الآتي- السيرة الذاتية في كتاب: الأيام لطه حسين، شكري المبخوت، دار الجنوب للنشر، د.ط، ١٩٩٢م، ص:٩.

فهل يجب أن تكون مُرتَّبَة منذ الولادة؟ وهل ينبغي أن تكون في جزء من أجزاء الحياة، مع إخفاء معالم أخرى؟ وهذه أسئلة جعلَتْ بعض كُتَّاب السِّيَر والمُنظِّرين لها في استشعار للخيطِ الرفيع الذي يكون بين (السيرة)، و (الذكريات).

ويرى الكاتب سمير عطا الله أنَّ أدب السيرة الذاتية في "المراتب الأولى من الكُتب الأكثر مبيعًا في جميع الثقافات. فالنَّاسُ تُحبُّ أن تعرف عن حياة الروائي قدر ما تحبُّ أن تعرف عن أبطاله"(١). ثم إنَّا إذا أردنا الحديث عن السيرة الذاتية عند العرب القدماء، فإنها "لم تتخذ مصطلحًا خاصًّا بها في الأدب العربي القديم،كما لم تستقل الكتابات الذاتية بكتب خاصة بها قبل القرن الخامس الهجري"(٢)، ويؤكِّد هذا بكر أبو زيد بقوله: "ثُمَّ إنَّ مسالك التدوين للتراجم مما نحن بصدده، وهو ما يُعرف بالترجمة الشخصية، أو الذاتية، أو السيرة في المضاف من كل منهما، وهو اصطلاح يظهر حدوثه، ولم أقِف على التعبير به عند المتقدِّمين، وإنَّما غاية عباراتهم أن يقولوا: ترجم فلانٌ لنفسه ونحوها" (٣). ولعلَّ أقدمَ حديثٍ لأدباء العرب عن أنفسهم هو "ما أُثر عن شعراء العصر الجاهلي في فخرهم، وحماستهم، وهو حديث شعراء لا يراد به إلى حكاية الواقع – تمامًا – بل تدخله المبالغة والتهويل. وظل ذلك – غالبًا – على الشعراء في العصور الإسلامية المختلفة"(٤). أمَّا في النثر القديم، فإنَّنا نجد في

---

(١) مقال: كبار الصحفيين... كبار الروائيين، سمير عطاالله، الشرق الأوسط، السبت: ٧ محرَّم، ١٤٤٦هـ/ ١٣ يوليو، ٢٠٢٤م.

(٢) السيرة الذاتية في الأدب العربي–فدوى طوقان جبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، تهاني شاكر، المؤسسة العربية للدارسات والنشر، ط:١، ٢٠٠٢م، ص٦٢.

(٣) العلماء الذين ترجموا لأنفسهم (السيرة الذاتية)، بكر أبو زيد، د.د.، ط:١، ١٤٠٥هـ، ص: ١٩، ص:٢٠.

(٤) الترجمة الشخصية، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط:٤، د.ت، ص: ٣٧.

القرن الثالث الهجري أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت:٢٥٥هـ) الذي يُعدُّ "أكثر من عُني –في عصره– بتصوير نفسه في كتاباته، بحيث نستطيع أن نستخرجَ من كُتُبه، ورسائله أكثر الخيوط التي أَلَّفَتْ نسيج حياته، من الوجهتين: الثقافيَّة، والمعاشية. ويجري معه في هذا الطريق ممن كانوا يُعجبون به وبأسلوبه، كأبي حيّان التوحيدي (ت:٤١٤هـ)، إذ كان يُعاني غُربة في أهل زمانه، ولم يَجِد من بينهم من يعرف فضله، وعلمه، وأدبه، ويقدِّره حق تقدير؛ فتولى ساخطًا مُغضبًا، يَقُصُّ قصةً من لقائه للوزراء وغيرهم، ممن وضعوه دون منزلته، وأخَّروه عن مرتبته"(١).

وقد كثُرت السِّيَر الذاتية والمذكرات الشخصية عند الكُتَّاب العرب المحدثين، ونهجوا نهج القدماء في الترجمة، "وقد اطَّلع ممن أتقن منهم اللغات الأجنبية، على ما لدى الغرب من ترجمات شخصية، فكان القديم العربي، والجديد الغربي باعثًا لهم على الترجمة لأنفسهم. ولعلَّ أهم من ترجموا لأنفسهم في القرن الماضي: علي مبارك"(٢).

وإذا قرأنا في الأدب الغربي الحديث، فإنَّ بذور هذا الفنِّ قد وُضعت "على يد امرأة بريطانية خاملة الذكر هي (مارغري كامب)، كما ورد في الموسوعة البريطانية، واستمرَّ ذلك بالتطوُّر والانتشار في الآداب الغربية حتى وصل إلى شكله المعاصر"(٣).

وبعد، فإنَّه على من يُريد كتابة سيرتِهِ ومذكِّراته أن يتوخَّى الشروط الواجبة، ومنها: "أن يكون صاحبُها ذا صلة دقيقة بأحداث كبرى، أو أن يكون ممَّن لهم مشاركة في بعض تلك الأحداث، أو أن يكون... ذا نظرة خاصة إلى الحياة وحقائق

---

(١) الترجمة الشخصية، شوقي ضيف، ص:٣٧، ص:٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص:١٠٥.

(٣) نقلًا عن السيرة الذاتية في الأدب العربي–فدوى طوقان جبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا– تهاني عبدالفتاح شاكر، ص: ٦٢.

الكون"[1]، ولعلَّ هذا لا يتأتى-غالبًا- إلَّا في منحنى العُمر، ومفترق الحياة. وينبغي أن تكون السيرةُ مكتوبةً بلُغة رفيعة وأسلوب حسن، "فليس للدَّارس أن يصف مذكرات سياسي، أو يوميات صحافي، أو مذكرات رياضي، بأنَّها تنضوي تحت اسم: السيرة الذاتية الفنية، دون أن يُعنى فيها أصحابها بتجويد العبارة، وحُسْن العرض، وجمال الأسلوب، وتوظيف الحوار توظيفًا فنِّيا في الحديث عن نفسه، وغير ذلك من الأسس التي تقوم عليها السيرة الفنية"[2]، فكاتب السيرة غير معذور بابتعاده عن التخصص اللغوي، فإن أراد أن يخوض الغمار؛ فليعدَّ العدة من حِبرٍ متدفق، وقلم حصيف، وهو -كما يقول إحسان عباس(ت١٤٢٤هـ) - "كالشاعرِ والقَاصّ في طريقة العرض والبناء، إلَّا أنه لا يخلق الشخصيات من خياله"[3]، وهو ما يؤكده عبدالعزيز شرف (ت١٤٢٥هـ)، بقوله: "على أنَّ السيرة الإنسانية لا تقتصر على النشاط الذهني، والنشاط العملي، بل هي تستند – أساسًا – إلى النشاط اللغوي، باعتبارها فنًّا أدبيًّا في المحلِّ الأوَّل"[4].

وإذا كان هذا مفتاحًا للحديثِ عن الهويمل، فإنَّ المدخل الآتي سيُبيّنُ الأسبابَ التي تردَّدَتْ في نفسه؛ كي يكتب السيرة، ويُظهر ما أراده المُحبّون من خبرات وقراءات.

---

(١) فن السيرة، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط:١، ١٩٩٦م، ص:٩٦.

(٢) السيرة الذاتية في الأدب السعودي، عبدالله بن عبدالرحمن الحيدري، دار طويق للنشر والتوزيع، ط:٢، د.ت، ص: ٢٠٣.

(٣) فن السيرة، إحسان عباس، ص:٨٠.

(٤) أدب السيرة الذاتية، عبدالعزيز شرف، ص: ١٢.

مدخل: حديثه عن السيرة الذاتية:

راودَت فكرةُ كتابةِ السيرةِ الذاتية الدكتور: حسن بن فهد الهويمل عن نفسها، فهو يُمنّي النَّفْس بين حين وآخر بأن تُفرِغَ ما في وسعها من طيف تليد، و ممرات كُتِبَت عليها الذكريات، ودفاتر لا يفْتُر عنها الحنين. ويُعلِّل رغبته في كتابة السيرة الذاتية، لسببين نستوضحهما في قوله: "وأنا أنتهبُ الخُطى في كتابة سيرتي الذاتية... لاسيَّما أنَّني قاب قوسين أو أدنى من أرذل العمر"(١)، فهو يستحثُّ الذاكرة التي يخشى أُفُول حروفها. ومع ما في (أرذل العمر) من خوفِ الرَّحِيل الذي لم يُسجَّلْ معه تاريخ، إلَّا أنَّ فيها تكريسًا لخبرة الأعوام, فرواية السيرة مع الغروب، ليست كما هي عند شروق العُمر وضحى الأيام في رحلة الحياة. ثم يُفصح عن سبب أخيرٍ لكتابة السيرة الذاتية، بقوله: "ونظرًا لإلحاح بعض المريدين-نسأ الله لهم في آجالهم، فقد استأنفتُ كتابة ما تيسَّر من ذاكرة يتفلَّت مخزونُها، يسَّر الله إنجازها"(٢). وهو قد جاوز السبعين، بإشارته التي فيها: "فالراكضون في عقد السبعينات-وأنا منهم- يصحبون الدنيا بملل وضيق، وإن طال أملُهُم وأحبُّوا دنياهم"(٣). وما كان هذا الإلحاح في طلب كتابة السيرة الذاتية؛ إلَّا لمعرفة المُريد ما عند شيخِهِ من سعة علمية، ورفعة أسلوبية، وتجارب حياتية، ينبغي أن تُنحت في صفحات الأجيال. وإذا كان له (مُريد)، فإنَّ المُراد أثيرٌ ومؤثِّر، يبتغي منه طالبُهُ أن يكتب الحروف على الطروس، كما نحتَها في الرؤوس.

---

(١) لمحات من الذاكرة (١-٢)، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ١٧ شوال، ١٤٤١هـ، العدد: ١٧٤٠٦

(٢) المصدر السابق.

(٣) أدب الرحلة عند العبودي، صحيفة الجزيرة، السبت، ٢٨ جمادى الأولى، ١٤٣٥هـ، العدد: ١٥١٥٧

ولمَّا كان العاملان: الداخلي، والخارجي مِشعلًا لنور السيرة الخاصة، فإنَّ الكاتبَ حذِرٌ يُوجس خِيفة منها، فهو يجسُّ الكلمات، ويبعثُ سرايا حروفه، فيقول: "وأصعب شيء على الحذرين تقديم أنفسهم بأقلامهم"(١)، ويؤكِّد هذا -بوضوح- في قوله: "وكلَّما هممتُ بموضعة نفسي؛ خشيتُ أن أكون في هذا الصنف، وقد يكون في الجُعبة ما يفيد، ولكنَّ بعض الأفواه لا تخلو من ماء يحول دون الإفصاح عمَّا يُفيد"(٢)، ثم يبرر حَذَرَه بأمثلة لمن كتب سيرته، فقارَبَ الحقيقة دون أن يحترفها: "وكثيرٌ من أدبائنا، وعلمائنا، ومسؤولينا يساورهم خوف الرأي العام، ويَثني من عزائمهم؛ الأمر الذي فوَّتَ علينا كثيرًا من الفوائد"(٣)، ولم يكتفِ بحديث مُجمل، فضرب مثلًا لأديبٍ مسؤول، يُحبُّه ويُكثر من الكتابة عنه، وهو -بذِكر اسمه- يرفع الحرج عن قلمه، ويجعل له مثلًا يسير حيث سار، "ولقد سبَق إلى تلك المهايع -الاستثناء- غازي القصيبي-رحمه الله- وكتَبَ: (حياة في الإدارة)، و(الوزير المرافق)، و (سيرة شعرية)، ونجح-أيَّما نجاح- في التعالق بين السيرة والرواية في (شقة الحرية)، ومع ذلك لم يتسور المحراب"(٤). وإذا كان القصيبي قد نجح في تعالقه، فقد تسوَّر المحراب غير مرَّة، لابسًا قناع شخصيةٍ في (شقة الحرية)، ومتدثِّرًا رداء السخرية في (الوزير المرافق). وهذا التفافٌ ذكيٌّ في ذِكْر الحقيقة، من غير أن يُحمل عليها.

وحينَ رسمَ المعْلَم الأول من معالم سيرته التي ستُبنى على الحذرِ المفيد، وبنى شواهده على هذا، إذ إنَّ "في البناء والطريقة يختار الكاتب التقسيم الذي يُريده"(٥)

---

(١) الخويطر وسيرته الغرائبية، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٢٥ رجب، ١٤٣٤هـ، العدد: ١٤٨٥٩

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) فن السيرة، إحسان عباس، ص ٨٠.

فقد سرَدَ البيّنات التي تُطلعُ القارئ بأنه لم يأتِ من خارج الحقل السِّيري، إنَّما هو من أهل هذا الفنِّ وخاصَّته: "ولقد كنتُ–ومازلتُ– شاهد أهل هذا الفن الجميل، فن (السيرة الذاتية)، أقرؤها مُحكِّمًا، ومناقِشًا، ومشرفًا، ومتطوّعًا، ليس لأحد عليَّ أمارة"[١]، وقال في موضعٍ آخر: "ومن الصُّدف الحميدة: اهتمامي المبكِّر بالسير الذاتية، ووقوفي على تجارب القادة، والمفكِّرين، والمصلحين، من خلال ما سجَّلوه عن تجاربهم، أو سجَّله مريدوهم"[٢]. فهو يوضِّح أنَّه ابن السيرة، قارئ لها في أزمنة سالفة، لكنَّ جدران الحذر تمنعه من تسوُّر محراب الكتابة فيها. وفيه تأكيدٌ على ما ذُكر في المدخل من شروط يجب توفرها في كاتب السيرة، من حيث الخبرة، و الأسلوب، وهو ما يتبيَّن في المُقتبس السابق. وفي توضيح جذور اهتمامه، بقوله: "فحين حظيتُ بمناقشة رسالة: (السيرة الذاتية في الأدب السعودي)، للدكتور: عبدالله الحيدري؛ أدركتُ أبعادَ هذا الفنِّ، ومبلغَ أدبائنا منه، وتفاوت أدائهم، ومدى اندفاعهم في الاعتراف"[٣]، و الْحظ قوله: "ومدى اندفاعهم في الاعتراف"، وما فيها من طراز معرفي يكبحه عن الكتابة. ولم يكن اهتمامه مقصورًا على التحكيم، والمناقشة، والإشراف، "فإضافة إلى أنَّ الإبداع السردي السيري مفردة مهمة في منهج الأدب الإسلامي، أُحاضر فيها في قسم (الليسانس) بجامعتَي (الإمام) و (القصيم)، منذ أربعة عقود، وألتمس في كلِّ فصلٍ إضافةً جيّدة جديدة"[٤]. فهو في بيتِ السِّيرةِ قد دخَل إليها من أبوابها: تطبيقًا، وتنظيرا.

---

(١) الخويطر وسيرته الغرائبية.

(٢) تجربتي الثقافية وتحولاتها (١–٤)، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٣٠ شوال، ١٤٢٧هـ، العدد: ١٢٤٧٢

(٣) الخويطر وسيرته الغرائبية.

(٤) لمحات من الذاكرة (١–٢).

ولمَّا أبانَ للقارئ أسباب الرغبة في كتابة السيرة الذاتية، فقد عبَّر عن الحيرة في كيفية افتتاحها، وتنظيم أفكارها، وتحديد منطلقاتها بقوله: "وليس من السهل لملمة أطراف التجارب المتنوعة: علمية كانت أو عملية، زمانية أو مكانية، ولستُ أدري من أي الزوايا ألتقطُها، ولا من أي الدروب آتيها؟ فالإنسان المسكون بالمهمات، والهموم الفكرية، والأدبية، والسياسية، وتقلباتها التي لا تقر، المتشبث بأرباب القلم وما يسطرون، وبالكتبيين وما ينشرون، تمرُّ به حيوات نافقة أو فائقة، وتغمره حضارات وضعية و سماوية، محفوظة أو محرَّفة، مفسرة أو مؤولة"(١)، فالقارئ لكتب السيرة الذاتية يرى اختلاف عرضِها، إذ (الأيام) لطه حسين، مختلفة عن (حياتي) لأحمد أمين، و(ذكريات) الطنطاوي، تبعد عن (سوانح) الجاسر، فلكلٍّ وجهة كتابية هو مولّيها، فضلًا عن خبرة الكاتب حسن الهويمل في هذه الحياة؛ سفَرًا كثيرًا قاصدًا، وقراءة متأنِّية، وتعليمًا ممتدًّا، وتحولات مجتمعية تحفظها عينٌ راصدة. ومع الحيرةِ في لملمةِ الأفكار، فقد أبانت مقالاته المدروسة عن منطلقات وملامح لسيرته الذاتية، يكشفها الحديث الآتي.

(١) تجربتي الثقافية وتحولاتها (١-٤).

المبحث الأول: موضوعات السيرة المقالية

أوّلًا: الدراسة والوظيفة:

لم أرصد في المقالات- التي اطلعتُ عليها- ظروف نشأته، وحياته الأولى، وقصص صباه، وألعاب طفولته، وسيرة والديه،كما نقرؤها في كثيرٍ من السِّيَر الذاتية والغيرية، ولعلَّ هذا مُخبَّأ في سيرته الذاتية، التي لم تكن المقالات إلَّا إرهاصات لها، وهي التي يُمكن أن نُطلق عليها مُذكِّرات لا سيرة ذاتية مكتملة. إلَّا أنَّ مقالًا غيريًّا للأستاذ الدكتور: عبد الله بن عبدالرحمن الحيدري، عنوانه: (حسن الهويمل.. مواقف وذكريات)[1] ، قد أسْفَرَ عن ضوء من السيرة الأولى، بقوله: "وربما مالا يعرفه بعض القرَّاء أنَّ الهويمل (من مواليد ١٣٦١هـ)، بدأ مشواره الكتابي في وقت مبكِّر، وهو في حدود الثامنة عشرة من العمر، حيث نجد له مقالات في جريدة القصيم، عام ١٣٧٩هـ، ومنها زاويته: (ما وراء الكثيب)، التي تدل على نضج مبكر، وقراءات متعمقة، ثم اتصل بعد ذلك اتصالًا وثيقًا بمعظم الصحف، والمجلات العلمية، ومنها: المنهل، والرائد، والبلاد، والمدينة، والرياض، والجزيرة، التي يكتب فيها-حاليًّا- بشكل أسبوعي".

ومع ما في هذه الإبانة الغيرية من أهميَّة، فقد كشَفَ الهويمل في مقالتِهِ: (أدب الرحلة عند العبودي)، عن طرفٍ من دراسته الأولى، بقوله: "في صبيحة الخامس عشر من شهر صفر، عام ١٣٧٤هـ، لملمتُ أطرافي المبعثرة، وغسلتُ وجهي المغبر، ولا أستبعد أنني استعرتُ عباءة وحذاء، ودفعت بكلِّ هذه الملفات إلى مكتبٍ طيني صغير، يقبع في أقصاه رجُل مهيب الجانب، تزينه وضاءة العلم، و يملؤه حنو المعلم، إنَّه العلَّامة محمد العبودي. كنتُ يومها في السنة الرابعة الابتدائية، وكان لدى المعهد العلمي -إذ ذاك- مرحلة تمهيدية تسبق المتوسط، ويُقبلُ فيها

(١) المقالة في المكتبة الشاملة، بتاريخ: ٥-٣-١٤٢٩هـ

المتفوقون؛ ليدرسوا في المرحلة التمهيديَّة"[١]. وفي هذا النَّص ملامح عائلية ومجتمعية، تلوح فيها تقاليد المجتمع في الملبس: (عباءة رجالية)، وحالته الاجتماعية: (مكتب طيني)، وصورة العائلة الاقتصادية: (استعرتُ عباءة وحذاء)، و(وجه مغبر).

وقد بيَّن في مقالتِهِ هذهِ تأثير العبودي عليه بقوله: "لقد عوَّدَنا الانضباط والطاعة، وكانت له أياديه البيضاء في التأسيس للعلم، وتعويد القراءة في مكتبة المعهد التي تعهَّد بإنشائها وإمدادها، وكانت انطلاقتي القرائية منها، ومن المكتبة العامة"[٢]. وهو تأثير يبيِّن الركائز الأولى في حُبِّ الكتاب والقراءة.

ولقد كان للانضباط والقراءة أثَرٌ مستقبليّ في الحرص على الدراسات العليا، فالقراءة تولِّد الأفكار البحثية، والتفكير الناقد، ويعرض لنتاجه في دراساته العليا، بقوله: "وعرفتُ في مطلع شبابي كتابَه [عبدالله بن إدريس]: (شعراء نجد المعاصرون)... وأقمتُ عليه رسالتي الماجستير: (اتجاهات الشِّعر المعاصر في نجد)"[٣]، وقد تحدَّث عن رسالته في مقالة أخرى بقوله: "وكنتُ قد قدَّمتُ رسالة الماجستير عن اتجاهات الشِّعر المعاصر في نجد، وهو أوَّل كتاب أكتبُهُ، وثاني كتاب أطبعه، بعد كتابي: (حاتم الطائي بين أسطورة الكرم وحقيقة الشعر)، وهي محاضرات أُلقيت في حائل قبل أربعة عقود، بدعوة من رئيس مكتب الرعاية، المتألق: عبدالعزيز القشعمي، ثم توسَّعْتُ فيها، وأضفتُ إليها"[٤]، وتحدَّث عن رسالته في معرض حديثه

---

(١) أدب الرحلة عند العبودي.

(٢) المصدر السابق.

(٣) قافية الحياة، صحيفة الجزيرة، السبت، ٢٣ رجب، ١٤٤٠هـ، العدد: ١٦٩٨٤. وكتابه: اتجاهات الشِّعر المعاصر في نجد، من إصدارات نادي القصيم الأدبي ببريدة، ط:١، ١٤٠٤هـ

(٤) تقميشات من السيرة الذاتية ٣، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ١٥ محرم، ١٤٣٥هـ، العدد: ١٥٠٢٧

عن حمد الجاسر، بقوله: "عرفتُهُ في مطلع شبابي، وفي تقميشاتي السيريَّة استعرضت لمعرفتي به. لقد بدأت بحدثين: أمَّا أحدهما: فعند إعداد رسالتي للماجستير: (اتجاهات الشعر المعاصر في نجد)، وأمَّا الثانية: فعندما عَقَد العزم مع ابن خميس -رحمهما الله- على تأسيس نادي الرياض الأدبي، إذ وجَّها لي طلب الانضمام إلى العضوية خطِّيا، وفيما بين هذا وذاك؛ استمر التواصل إلى حدِّ الخلطة"[1]. وتحدَّث عن هذه الرسالة، وعن أطروحة الدكتوراه، في حديثه عن الشاعر: إبراهيم الدامغ، بقوله: "لقد عرفتُ الشاعرَ قبل أن أدخل عوالمه الشعرية؛ فكان مثار إعجابي، وعرفتُهُ أكثر حين أعددتُ رسالتي للماجستير: (اتجاهات الشعر المعاصر في نجد)، وعرفتُ اتجاهاته الموضوعية، ثم زادت معرفتي به حين أعددت رسالتي للدكتوراه: (النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر)"[2]. ومن يقرأ ديوان الدامغ لا تخطئ عينه جودة الشِّعر، وصدق المواقف وصراحتها، في كثير من مضامين قصائده.

و الحظ في الأسطر القليلة السابقة قدْرَ الكثافة المعرفيَّة، التي فيها الإشارات إلى معلومات شخصية، وعلمية، ومجتمعية عدَّة. ثُمَّ إنَّه قد تحدَّث عن رسالته كرَّة أخرى عند عرْض معركته مع الحداثيين، بقوله: "لقد تقدَّمتُ برسالتي: (اتجاهات الشعر المعاصر في نجد)، إلى كلية اللغة العربية، بجامعة الأزهر، وفي ظني أنَّها القول الفصل، وأنَّه لا معقّب لمحتواها، ومن ثم أقْدمتُ على طباعتها دون تعديل أو إضافة، وحين أثقَلْتُ الحداثيين بالنقد؛ أخذوا هذه الرسالة من أطرافها، وأوسعوها ذمًّا

---

(١) الجاسر الحاضر الغائب، صحيفة الجزيرة، السبت، ٢٤ نوفمبر، ٢٠١٨م.

(٢) الدامغ في يوم تكريمه، صحيفة الجزيرة، الخميس، ٢٣ صفر، ١٤٢٧هـ، العدد: ١٢٢٢٩. وأطروحته للدكتوراه هي: النزعة الإسلامية في الشِّعر السعودي المعاصر، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، د.ط، ١٤١٩هـ

وسخرية"[١]. وقصَّته مع الحداثة والحداثيين تروى ولا تطوى، إذ انتهت المعارك النقدية بكتابه: (الحداثة بين التعمير والتدمير)، والذي أرجو أن يتَّسع الحديث عن هذه المرحلة في سيرته التي سيكتبها، إذ كانت معارك لها صدى الحربِ النقدية عند النقاد المصريين، كالرافعي، والعقاد وغيرهما. وإنَّ أَثَر العقاد كبير على حسن الهويمل، وهو أثر نابض في مقالات كثيرة، سأشير إلى بعضها في هذه الدراسة.

وإذا كان هذا حديثه عن دراسته الأولى، ثم تجاوزه إلى الحديث عن رسالة الماجستير وأطروحة الدكتوراه، فقد تحدَّث عن تدريسه، بقوله: "قَدَري الحميد أنَّني أمضيتُ في التعليم نصف قرن ونيِّف، بدأتُ مُدرِّسًا للابتدائي عام ١٣٧٩هـ، وأنا إذ ذاك لا أحمل إلَّا شهادة الابتدائية، ومررتُ بكل المراحل حتى الدراسات العليا، إضافة إلى الإشراف على الرسائل العلمية: الماجستير، والدكتوراه"[٢]. ثُمَّ يُبرز ثمرة تجاربه في التدريس بقوله: "ونصيحتي–دائمًا– لطلابي الذين على مشارف التخرج أن يزرعوا محبتهم في قلوب طلابهم"[٣]. وهي نصيحة جاءت بعد أن وجد صدى الحُبِّ، والدعاء، والثناء، في وسائل التواصل الحديثة. وإنَّ الحديثَ عن الدراسة، والتدريس، والرسائل العلمية، قائدٌ إلى تتبُّع قراءاته، وطريقة رصف كُتبه في مكتبته، وهي أشياء ظاهرة في الحديث الآتي:

---

(١) تقميشات من السيرة الذاتية ٣.

(٢) تقميشات من السيرة الذاتية ٤، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٦ صفَر، ١٤٣٥هـ، العدد: ١٥٠٤٨

(٣) المصدر السابق.

ثانياً: الكُتب والمكتبات:

لقد تموضَعَ الهويمل بالحديث السابق في العلم والتعليم، وأحال إلى بعض مؤلَّفاته، ثمَّ استقصى –هنا– في الحديث عن الكُتب والمكتبات، إذ حكى قصة تكوين مكتبته، وطريقته في ترتيب حقولها، والكتب التي يقرؤها، وغير هذا مما بثَّته المقالات.

ثُمَّ إنَّ المكتبة عنده محطُّ الركاب، بها يغتسل من تعب الحياة، فيقول: "من جهتي، أجد الخلاص من هذا العناء في شيئين: في...، كما أجده في مكتبتي، أدخلها ساعة من نهار، أطوف في حقولها، وأنظر في كعوب الكتب، أُجدِّد معلوماتي، وأثير كوامن رغباتي"(١)، ويقول في مقالة أخرى: "يدي –في بعض الأحيان– تمتدُّ بعفوية تامَّة إلى أعقاب الكتب في رفوف مكتبتي، فأسحبُ كتابًا من هنا، وآخر من هناك"(٢). وفي هذا، نستشعر حُبَّه للقراءة النهارية، كما أنَّه لا يصبر في ثقافته على طعام واحد، فهو واسع الثقافة، محبٌّ لفنون المعرفة، وألوان العلوم.

ويتحدث عن المكتبات، فيقول: "وحكايتي مع المكتبات حكاية تطول وتتشعب، وعندي أمل في تقصِّيها، ففيها بعض الفائدة، وكثير من المتع، ولقد تحدَّث الكتبيُّون عن هَمِّ الكُتب؛ فأمتعوا كُتَّابه"(٣)، ويؤكد الرغبة في الكتابة عن المكتبات في مقال آخر، بقوله: "لقد ضمَّنتُ كتابي: (في الفكر والأدب) شطرًا من ذكرياتي من هذا اللون من المكتبات، ومن نوادر المخطوطات، وقد أَستلُّها وأُعيد صياغتها؛ لتكون شطرًا من

---

(١) في مكتبتي، صحيفة الجزيرة، الجمعة، ٨ رمضان، ١٤٤١هـ، العدد: ١٧٣٧٣

(٢) في عالم توفيق الحكيم وأنيس منصور، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٣ نوفمبر، ٢٠١٥، د.ع.

(٣) تداعيات القراءات الدمشقية، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٢٢ رجب، ١٤٣٥هـ، العدد: ١١٦٦٧

السيرة الذاتية"[١]. ويرى في المكتبات لذة الاكتشاف، بقوله: "ودخلتُ المكتبات، وزرتُ المنتديات، وجادلتُ، وجالدتُ، وذقتُ لذة الاكتشاف"[٢].

ثم يتحدث في مواضع عدَّة من مقالاته عن تكوين المكتبات، ومنها قوله: "أحسب أنَّ لكل مثقَّف طريقته في التكوين والترتيب، وكانت للبعض منهم أحاديث ممتعة مستقلة، أو ضمن سِيَرهم الذاتية، وأمتع ما قرأت في هذا المجال ما كتبه الزميل الصديق، الأستاذ الدكتور، المحقق: عبدالله عسيلان، ومن قَبْله تحدث العقاد، وبعض كُتَّاب السيرة الذاتية من الأدباء والمفكِّرين قد ألمحوا إلى شيء من ذلك"[٣]، وهو يرى أنَّ "من أمتع الأحاديث قصة تكوين المكتبات الخاصة. وللعلماء، والأدباء، والمفكرين طرائقهم في نشأة مكتباتهم. والمكتبة تشكِّل جزءًا من حياة صاحبها، وهي عالمه الذي يَنسى –حين يدخله– عالمه الخارجي"[٤].

ويقص من بعدِ ذلك خبرَ تكوين مكتبته الخاصَّة، بقوله: "اتخذتُ لها (صُفَّة) طينية ترابية مظلمة، و(سحَّارة) خشبية، و(سراجًا) من صفيح أبيض، يصنعه الحدَّادون بفتيلة مغمورة بـ(القار)... من هذه (الصُّفَّة) انطلقت مكتبتي. أحسستُ بحُبِّ الكِتاب منذ ذلك الوقت، حتى وإن لم أكن أفهم ما فيه"[٥]، فهو تكوينٌ قديم، فمن حوله منشغلون بالماء والمال، وهو في غرفة طينية، ينشغل برصف الكتب، و صفِّ المؤلفات. ثُمَّ يقول في المقالة نفسها: "لقد مررت بطفولة عفوية ساذجة، قوامها

---

(١) تقميشات من السيرة الذاتية ٨، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٢٤ جمادى الأولى، ١٤٣٥هـ، العدد: ١٥١٥٣

(٢) تقميشات من السيرة الذاتية٢، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٨محرم، ١٤٣٥هـ، العدد: ١٥٠٢٠

(٣) تكوين المكتبات، صحيفة الجزيرة، الجمعة، ٢٢ مايو، ٢٠٢٠م، د.ع.

(٤) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

ثلاثة كتب، عَثَرْتُ عليها في بيتنا: رياض الصالحين، جواهر الأدب، المستطرف"(١)، ويعقِّب بعد ذلك بقوله: "لقد مرَّت مكتبتي بتطوّرات ومتغيِّرات متلاحقة، ونمت بشكل طبيعي، ميزتها أنَّها غير تخصصية، بدَأَتْ تراثية دينية سلفية، ثمَّ واكبت المتغيرات، وكان تخصصي فيها من أوسط الحقول"(٢). ويستبين في هذا الموضع عشق الكتاب، ومحبة المكتبات، فهو عنده من أمتع الأحاديث. ونرى في الكلمات تاريخًا غير مسطور، إذ كانت قراءاته ممتدة إلى جذور عميقة، بطفولة عاشها في بيت طيني، يقرأ كتابه عند مشكاة فيها مصباح.

ثُمَّ يُشيرُ إلى طريقة شراء الكتب، بقوله: "ومن عادتي حين أريد شراء كتاب أجهل مؤلفه، ولا أتوفر على معرفةٍ كافية عن حقله المعرفي، أن أستعرض المقدمة، والخاتمة، والمراجع، وأستبين المنهج، والخطة، وآلية التناول، ثم أختار بعض الصفحات عشوائيا"(٣). وهي آليةٌ في القراءة السريعة، تعطي انطباعًا أوَّليًّا- وإن كان غير كافٍ- عن محتوى المقروء. ومن عاداته في القراءة، "تحديد زمن الشراء، ومكانه، وزمن القراءة، مع التهميش على الصفحات، ووضع الخطوط على المهم"(٤) ، ثم يحدد المعارف التي يقتنيها بقوله: "فأنا أبحثُ عن كُتُب الفكر، والسياسة، والمعاجم، والموسوعات الحديثية، ومذاهب النقد الأدبي الحديث تنظيرًا، وتطبيقا.

---

(١) تقميشات من السيرة الذاتية٢.

(٢) تكوين المكتبات.

(٣) عقائد المفكرين في القرن العشرين، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٢٩ محرم، ١٤٢٧هـ، العدد: ١٢٢٠٦

(٤) قصَّتي مع حديث الأربعاء ١-٢، صحيفة الجزيرة، الجمعة، ٥ ذو القعدة، ١٤٤١هـ، العدد: ١٧٤٢١

ولست معنيًّا بمن معي أو ضدي في الفكر، والسياسة، والأدب"[١]، ويؤكد هذا في مقالة أخرى بقوله: "ولمّا كانت قراءاتي ومتابعاتي للقنوات، ومواقع التواصل، تتراوح بين معلَّقات الوضع السياسي، ومجالات الفكر والأدب، مما ليس له صلة بلِغَة الحرب والسياسة، فإني قد أهرب من لهيب الفتن، وأنغمس في روائح الفن، ولهو الأدباء والمفكرين"[٢]، ويمثِّل على هذه الكتب بقوله: "وفي تلك الغيبة... لم أصحب معي إلَّا قبضة من أثر المفكرين والسياسيين في بضعة كتب، خفيفة الحمل، ثرية النفع، من بينها كتاب: (كنتُ شيوعيّا)، لـ(بدر شاكر السياب)، وهو مجموعة مقالات نشرها تباعًا في جريدة (الحرية) في بغداد، ثم جمعها، وأضاف عليها أحد عشر مقالًا، ثم أخْرَجَها إلى الناس في كتاب مليء بالعِبر التي لا صلة بما نحن فيه من تردِّيات موجعة"[٣]. ولعلَّنا نتأمَّل التعالق الفكري/ السياسي/ الأدبي، في اسم الكتاب ومؤلفه، وهو تعالق يكشف الاهتمام الدقيق الذي يجنح إليه كاتب السيرة الذاتية. ويؤكد على شَرْطٍ في الكُتُب التي يقرَؤها حيث تتضمن "قُدرة في التناول، وغزارة في المعرفة، ووعيًا عميقًا للظواهر، والمذاهب، والتيارات، وانضباطًا منهجيا"[٤]، فهي قراءة حُرّة، يضبطها الوعي القرائي القديم، والمنهجي الحديث، ويؤكد على مسألة القراءة للأشخاص لا القراءة عنهم، بقوله: "كان من أوَّليات اهتماماتي أن أقرأ العمالقة من خلال ما قالوا، لا من خلال ما قيل عنهم، وهذا النوع من القراءة مغامرة محفوفة بالمتاعب؛ لأنَّها فَرْي ذاتي، وتشكيلٌ لرؤية ذاتية"[٥]، ويحتفظ بكُتبٍ قديمة فيها روائح

---

(١) تداعيات القراءات الدمشقية ١.

(٢) في عالم توفيق الحكيم وأنيس منصور.

(٣) كل من لاقيت يمشي وجلا، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٣٠ شعبان، ١٤٣٤هـ، العدد: ١٤٨٩٤

(٤) المصدر السابق.

(٥) تقميشات من السيرة الذاتية ٢.

الماضي، بقوله: "احتفظتُ بمقررات مَرَّ عليها ستون عاما، وذلك عندما كنتُ طالبًا في المعهد العلمي ببريدة، وكلَّما فتحتها تذكرت طفولتي، وشبابي المبكِّر، وأساتذة رحلوا، وزملاء شاخوا، وآخرين اخترمتهم يد المنون، وكم تتسمر نظراتي على سطرٍ حَبَّرته، أو سَطْرٍ مطبوع وضَعْتُ تحته أكثر من خط، أو قَوْل نسفتُه، أو حكمة قوَّستُ عليها، ولكلِّ أثر حكاية لها تداعياتها المفرحة، أو المُترحة"(١).

فنحنُ نقرأ في تكثيفٍ وتركيز كيف كان يقرأ؟ ولمن يقرأ؟ وكيف يَصفُّ كُتبه؟ وهو حديث لن ينقضي، وسنراه في الكتابةِ عن رحلته، وكأنَّ الكِتاب ثريدٌ في مسغبة، وماءٌ في صحراء قُفر.

ونراه يرتب مكتبته بطريقة خاصة، و يَصِف في مقالةٍ طريقةَ حقولها، بقوله: "هرعتُ إلى مكتبتي التي نشأَتْ معي منذ نصف قرن، واتخذت لها توزيعًا وفق رؤيتي الخاصة، وليس وفق النظام العشري المعتمد لدى المكتبات العالمية"(٢)، إذ كان يضع كل كتاب في حقله الخاص به، وهو تصنيف قد أشار إليه من قبل. وعلَّل فِعله، بأنَّ لكل مثقف وجهته التي هو مولِّيها في الصفِّ والترتيب. ومن الحقول في مكتبته: (حقل ذوي العاهات)، ونجد الإشارة إليه في قوله: "لقد وجدتني مسمَّر القدمين أمام حقل ظريف خفيف، حقل ذوي العاهات من المبدعين، إنَّه –بحقّ– حقل مهم وممتع، كُتُبٌ مهمشة على الرغم من امتلائها بالفوائد والفرائد"(٣)، ومن الحقول في مكتبته: (حقل السيرة الذاتية)، الذي قال عنه: "فحقل السيرة الذاتية في مكتبتي من أوسع

(١) تقميشات من السيرة الذاتية ٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في مكتبتي.

الحقول وأشملها"[١]. وفي هذا تأكيد لمقولته: بأنَّ السيرة الذاتية ليست وليدة الصدفة، إنَّما هي نتاج القراءة، والنقد، والفحص، والتَّتبُّع.

ويُبيّنُ طريقته في القراءة بقوله: "فإنِّي ملولٌ لا أصبر على كتاب واحد، وليس من عادتي حين أبرح أرض بلادي أن أكتفي بما أحمله من كتب، وإنَّما أختلس شطرًا من الوقت، وأزور ما تيسر من المكتبات؛ لأشتري منها أحدث الإصدارات في مختلف المعارف، ثم أطويها قراءة عجلى تأخذ كل مستويات التلقي"[٢].

وإنَّ الهويمل في إشارته هذه بالقراءة في السفر، ليفتح نافذة إلى الحديثِ عن سفره وترحاله، وهو الموضوع الذي يلي هذا البيان.

---

(١) لمحات من الذاكرة (١-٢).

(٢) تداعيات القراءات الدمشقية ١.

ثالثًا: السَّفَر والارتحال:

لم تكن الرحلة عند كثيرٍ من مُحبِّي القراءة راحةً وترويحا فحسب، إنما هي بناءٌ للروح، وزاد في المعرفة، وتعرُّفٌ على الغريب. وقد كانت الرحلةُ سببًا في كُتبٍ أُلِّفتْ، ومعارفَ نظلُّ عليها عاكفين، فقد رحلَ ابن بطوطة، وترك لنا قبضة من أسفاره، وطاف العبودي في الأرض، وزوَّدنا بكُتبٍ، وسمعيَّات جعلتنا نطوف معه ونحنُ لم نبرح. ولم يكن الأمرُ عندهما فحسب، فقد رأينا كُتُبًا في أدب الرحلات تنظيرًا وتطبيقا، وقرأنا رحلاتٍ ضمَّنها المرتحلون في سيرهم الذاتية، وكان منهم الهويمل، الذي مهَّد الحديث عن رحلاته، بتشريح أدب الرحلات، بقوله: "أدب الرحلة بوصفه لونًا من ألوان السرديات، تتنازعه معارف متعددة، فهو كما الثقافة يأخذ من كل شيء بطرف، إذ يكون تاريخًا، أو جغرافيا، أو علم اجتماع، أو علم سكان، أو سيرة ذاتية، أو ما شئت من أنواع السرديات العلمية والإبداعية"(١)، وكأنَّه يُخبر عن طريقته التي سيتحدَّث بها عن رحلاته، فهي رحلةٌ، لكنَّك سترى فيها جوانب التاريخ، والجغرافيا، والحديث عن النفس. وقد يَخْلُد في بعض رحلاته إلى نفسه لا إلى الأرض بتاريخها، وجغرافيَّتها، وفنونها، فنراه بعد إحدى رحلاته يقول: "عدتُ للتو من رحلة فرغت فيها لنفسي، لا لجيبي، ولا لفكري، وما أقلّ الذين يمنحون أنفسهم إجازة، يُروِّحون فيها عن قلوبهم، ويمتِّعون فيها مشاعرهم؛ تمشِّيًا مع الأثر: "ساعة وساعة"(٢)، وهو جزء من أجزاء كثيرة من ألوان رحلاته، التي تراوح بين نزهة الجسد والفكر.

ثم يُبحر في الحديث عن محطة من محطات أسفاره، وهي الرحلة المصرية، التي قال عنها: "قبل ثلاثة عقود، كتبتُ في هذه الجريدة [الجزيرة] عن جانب من

---

(١) أدب الرحلة عند العبودي.

(٢) كل من لاقيت يمشي وجِلا.

ذكرياتي الممتعة عن سور الأزبكية، في حي الأزهر بمصر، تحت عنوان: "المجد المعتَّق لسور الأزبكية"(١)، وقد أثار النصُّ مسائل عدَّة، منها: أنَّه يتحدث في هذا النص –وفي غيره من مقالات السيرة الذاتية– عن الماضي، كقوله هنا: (ثلاثة عقود)، خلافًا لما في تغريداته بمنصة (إكس)، إذ الملحظ كثرة الحديث عن المستقبل الأُخرويّ، والحديث عن الموت، وكأنه يتحدث عن هُويَّة أصيلة متجذرة، تتمثَّل في ماض عميق يحنُّ إليه، ومستقبل يرجو الثواب فيه. وقد أثار النَّص نظرة أخرى، إذ يلبس الحديث عن الكُتب ثوب الفرح، بهجة بالكتاب، وفرحة بالتخلُّص من سرد الذكريات عن الآخرين، وعن المفاوز التي قد يقطعها عند الحديث عنهم.

ونرى طه حسين ماثلًا بـ(أيَّامه) أمام ناظري الهويمل، في حديثه عن مصر، إذ إنَّ طه حسين بأضلاعه الثلاثة: الجنسية المصرية، والأسلوب، ومضمون الكتاب؛ مُوافق لما في النفس في الحديث عن مصر، وعن سيرة ذاتية، وعن أسلوب يتميَّز به المؤثِّر والمتأثِّر، وهو الذي أدَّى إلى الاقتباس منه بقوله: "واستقبل الفتى حياته في مدينة (مونبلييه) سعيدًا بها إلى أقصى ما تبلغ السعادة، راضيًا عنها كأحسن ما يكون الرضا، فقد حقَّق أملًا لم يكن يُقدِّر أنَّه سيحققه في يوم من الأيام. هكذا قال طه حسين في أيَّامه العِذاب، حين قَدِم إلى فرنسا للدراسة، وكأنَّه بهذا يجمجم عمَّا في نفسي، حين قَدِمْتُ إلى مصر للدراسة–أيضًا– في مستهلِّ العقد الثامن من الألفية الثانية للميلاد"(٢)، ولم يكن تذكُّر طه محصورًا في الرحلة المصرية، إنما كانت (أيامه) معه في كلِّ سَفَر: "كنت كلَّما هممت بالسَّفَر؛ تذكَّرتُ رحلات طه حسين السنوية إلى فرنسا، مع زوجته (سوزان)"(٣).

---

(١) تقميشات من السيرة الذاتية ٣.

(٢) تقميشات من السيرة الذاتية٣

(٣) تداعيات القراءات الدمشقية١

ويتَّضح حُبُّه لقلم طه حسين في قوله: "أنا أُحِبُّ طه حسين حُبًّا جبلِّيًا، وأكرهه كُرهًا عقديًّا وفكريّا، وحبي له مرتبط بغزارة علمه، وسعة ثقافته، وبراعة جدَله، وجمال عَرضه، وروعة أسلوبه المتأنق الذي يُعدُّ من السهل الممتنع... وجناحه في مكتبتي الذي يشتمل على كلِّ ما أملاه من كُتب، وكلِّ ما كُتب عنه، لا يعلوه الغبار؛ لأنني أتعهده بالمراجعة، وهو من المؤثِّرين في أسلوبي، بل أكاد أقع في شَرَك التقليد، وبخاصَّة حين أهمُّ بالكتابة"[1]، فهو يطير في نقد طه حسين بجناحي الرغبة والحذر أو التحذير، إذ يُؤْثِر أسلوبه السهل الممتنع، ويحذر من فكر مشوِّش، أو معرفة لا تخلو من دسيسة.

ويكتب عن شاغل ذهنه في ذهابه إلى مصر، بقوله: "في رحلتي الأولى إلى مصر، كان يشغلني همَّان: هَمُّ الدراسة، وهَمُّ تحرير المسائل الأدبية وتأصيل المعارف النقدية المكتسبة من القراءة والمخالطة. كان الأدب المصري مهيمنًا على كل الآداب العربية، وكان المؤلِّفون، والمدرِّسون المصريون، حين يُحاضرون أو يكتبون عن الأدب المصري؛ يَعدُّون ذلك كلّه عن الأدب العربي، وكأنَّهم سَلَّموا وسُلِّم لهم أَلَّا أدب إلَّا الأدب المصري"[2]، ونلحظ اعتراضه الضمني في سطره الأخير: "وكأنَّهم سلَّموا، وسُلِّم لهم"، وهو اعتراضٌ عامٌّ خصَّصه حين وجَّه نقده إلى ثُلَّة من أدباء مصر، إذ وصَفَ الريف المصري، بقوله: "في الرِّيف المصري يبدو لك المعدن النقيُّ لإنسان مصر، فيه الِجدُّ والدَّأب، وبساطة الحياة، ولقد كانت لنا أيامٌ في عمق الريف، نشاهد الحياة البدائية التي قصَّر عن تصويرها السرديون، أمثال: نجيب محفوظ، ويوسف السباعي، وأضرابهم، حيث توغلوا في تجسيد سَفَه المدينة وخلاعتها، وانتزع نجيب

---

(١) عفا الله عن طه حسين، ما أظلمه لنفسه، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٢محرم، ١٤٣٥هـ، العدد: ١٥٠١٣

(٢) تقميشات من السيرة الذاتية ٣

محفوظ عالميته الزائفة من قعر الواقع في المجتمع القاهري، ولم يتجه صوب الريف المصري إلَّا قليلا"[١] وإنَّك لترى في قوله: (عالمية زائفة)، ضربة سريعة خاطفة، لكنَّها لا تخلو من عُمق بحاجة إلى تحليل. ولم يكن حديثه في سِيَرِه المقالية خاصًّا بمصر وحدها، فقد كتب عن حضوره المؤتمرات المحلية، والإقليمية، والعالمية، ودوَّن خواطره – عرضًا – عن سفره مع أسرته إلى الكويت، ولم أشأ أن أعرِض لهذا كلِّه، إذ رأيتُها أحاديث عارضة، تصف المشهد لا المكان، خلافَ حديثه عن مصر، الذي كان وصفًا للمكانِ والأناسيّ، وهو حديث يشفُّ عن ولع وحُب يتقافز من حبر القلم. وإن كان قد قال عن الأدباء المصريين: "وكأنهم سلَّموا و سُلِّم لهم"، إلَّا أنَّه لم ينعتق من سطوتهم، ولعلَّ بواكير الشباب، وعوالم الدراسة الأولى في مصر قد زرعت الجذور، ولم يستطع اقتلاعها، وإن حاول غير مرَّة. وقد تحدَّث عن أدباء مصر ووصفهم بالعمالقة، بقوله: "أدركتُ بقية العمالقة في مصر، وهم أحياء يُرزقون، ولم ألتق بأحد منهم، غير أني شُغلت بنتاجهم، وتعقُّب آثارهم، وأقمتُ لهم حقولًا في مكتبتي، جمعتُ فيها ما قالوا، وما قيل عنهم، وقدَّمتُ عن بعضهم دراسات خالفتُ فيها السائد"[٢]. ونلحظ في قوله: "خالفتُ فيها السائد" أنَّه نِزاع الحُبِّ والحبر.

ولمَّا أن كانت موضوعات سيرته الذاتية المقالية حاملة إشارات نقدية؛ لزم الأمر في وضعِ مبحثٍ يبرز هذه الومضات، وهو ما يحمله المبحث القادم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أدب المعدة، صحيفة الجزيرة، الجمعة، ١٧ شعبان، ١٤٤١هـ، العدد: ١٧٣٥٥

المبحث الثاني: الفَنُّ في السيرةِ المقاليَّة

أ) النقد الأدبي:

رأينا في الموضوعات السابقة كيف كان الحديثُ عن سيرته الذاتية، إذ دخل إليها عن طريق الرحلة العلمية، والمكتبة والكتاب، فهي أشبه بالمذكرات العلمية، التي يقول فيها الحقيقة، لكنَّه لم يحترفها، فلقد تجاوز –ببراعة– ما كان يحذر منه ويُحاذر، فلم يتطرَّق إلى الأناسي مدحًا أو قدحًا إلَّا في حدود العلم والنقد الأدبي؛ فاستبان في حديثه النقد التعليلي، والنقد الانطباعي، فهو يتحدث عن الكتابة وطرفَيها: الأسلوب و المضمون، في قوله: "نستفيدُ أسلوبيًّا من المنفلوطي، والرافعي، والزيَّات، بوصفهم من أصحاب الأساليب المتأنِّقة، أمَّا أنيس منصور، فمقالاته زاخرة بالمعارف من مختلف الثقافات؛ لأنه قارئ نهم، وصاحب ذاكرة قويَّة استحضارية، وله نزوعه الاستطرادي الذي يكاد يفوق سلَفه الجاحظ"(١)، ولا ينفكُّ إعجابه بِلُغة الكتَّاب المبرزين، فهو متأملٌ لغةَ توفيق الحكيم، وقد أحلَّه في قلبه مكانة عليَّة، ومن ذلك قوله: "وللحكيم [توفيق] في نفسي مكانة، منشؤها تفكيره العميق، ولغته الأصيلة، وفنُّه الرفيع، وتصوُّره الساخر للناس ولنفسه، حتى إنَّه لِيم على تبذُّله، وسخريته، وحضوره في المشاهد كلِّها، مقرونًا بـ(حماره)، و (عصاه)، و (بريهته)(٢)، وقد أكَّد الهويملُ ما قاله أنيس منصور في توفيق الحكيم، بأنَّه كاتب (فنَّان)، لكنَّه عقَّب بقوله: "في خريف العمالقة تبدَّت صفة واحدة في كلِّ أديب أو مفكِّر، فالحكيم فنَّان، وطه حسين مؤرِّخ، والعقاد ناقد، هكذا يقول منصور على طريقته الجازمة، الثلاثة – فيما أرى– يتبادلون المواقع، ولكن بمستويات متفاوتة"(٣)، وهو مُحقٌّ في هذا، إذ لا يمكن التسليم بأنَّ العقادَ ناقد، ثم نخفي سطوع فِكره، ولا يمكن التقرير بأنَّ طه حسين

---

(١) في عالم توفيق الحكيم وأنيس منصور.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

مؤرخ، ثم نغضي عن نقده الأدبي، وجمالِ أسلوبه، فهم في مراكب عدَّة لا تكدِّرها دلاء الطريقة الجازمة عند أنيس.

ولم يكن وقوفه عند أسلوبِ (السُّخريَة) مقصورًا على توفيق الحكيم، بل نراه ذاكرًا الملمحَ عند كُتّابٍ ثلاثة، بقوله: "زكي مبارك-رحمه الله- يتدفَّق عِلمًا، وسخرية متأصِّلة عنده، كما هي عند المازني، ومارون عبود الناقد اللبناني الساخر[1] ، ويشير إلى هذا الأمر في حديثه عن غازي القصيبي، وعن محمد حسن زيدان، عندما أسهَب في ذِكر من عايشهم وأُعجب بهم: "وممن عشتُ الخُلطة معهم، وامتلأتُ بهم إعجابًا وإكبارًا من الأموات: علَّامة الجزيرة: (حمد الجاسر)، والشاعر اللغوي الأديب: (عبدالله بن خميس)، والأديب الوديع: (عبدالعزيز الرفاعي)، والمربي القدير: (عثمان الصالح)، والشاعر المؤرخ: (أحمد العقيلي)، والإعلامي الفذ: (عبدالله بالخير)، والشاعر السفير: (حسن القرشي)، والشاعر الثرّ: (محمد حسن فقي)، والموسوعي الراوية: (أحمد المبارك)، والكاتب الساخر: (محمد حسن زيدان)، والكاتب الجادّ: (عزيز ضياء)، والرائد السردي: (عبدالقدوس الأنصاري)، ومتعدد المواهب: (غازي القصيبي)، وآخرون ندُّوا عن الذاكرة، رحمهم الله جميعا"[2]، ومن جلس إلى الهويمل، أو قرأ له؛ يرى طريقة خلْط المعرفة بالسخرية، فيخرجها إلى سامعها بلوحة مرسومة بالجَمال، وكأنَّه يؤكِّد ضرورة المزج بين المعرفة واللغة الساخرة، بتكراره هذا عن هؤلاء الأعلام.

ويُقارنُ عند الحديثِ عن الأدباء السعوديين، بين أديبين كبيرين، في قوله: "فقد تكون علاقتي المبكرة بالأستاذ: عبدالله بن إدريس، من أسباب ابتعادي عن ابن

---

(١) في عالم توفيق الحكيم وأنيس منصور.

(٢) تقميشات من السيرة الذاتية٦، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٣ جمادى الأول، العدد: ١٥١٣٢.

خميس، فالرَّجلان خصمان لدودان، وقد فصَّل ابن إدريس في سيرته بواعث الاختلاف بينهما. الشيء الغريب أنَّ ابن إدريس في كتابه: (شعراء نجد المعاصرون)، لم يترجم لابن خميس، مع أنَّه من أفضل الشعراء، وأنداهم صوتا، وذلك من أقوى المآخذ عليه، وإن برَّر تصرفه ذلك، وأشاد بالشَّاعرِ فيما بعد، ولكن يظل الخلاف قائمًا بينهما"[١]، وإذا كان قربُه من ابن إدريس سببًا في ابتعاده عن ابن خميس، فقد أورد سببًا آخر في هذا الابتعاد، بقوله: "أمَّا الشاعر اللغوي الأديب: عبدالله ابن خميس– رحمه الله– فلم أكن معه مثلما كنتُ مع الجاسر، إذ ربَّما حال بيني وبينه اهتمامه بالشعر الشعبي، وسوء الفهم لرؤية كلٍّ منَّا، ومحاولة تحريضه عليَّ من قِبل الكتبة، الذين يعشقون الإثارة. وعداوة الصحفي بئس المقتنى"[٢]. ولعلَّ الهويمل يقصّ طرَفًا من معاركه حول الشِّعر الشعبي في سيرتِهِ التي سيكتبها، فهي ليست أقلّ حظًّا من معاركه مع الحداثة.

ولم يكن الكلامُ عن الأدباء السعوديين مقصورًا على هؤلاء، إذ تأثَّر في وقت مبكِّر بأسلوب سعد البواردي، كما في قوله: "وأعجبني أسلوب البواردي، وصلف شبابه، ولم يُتَح لي شرف الكتابة في (الإشعاع)، وشرفت بالاتصال المباشر، والكتابة في (الرائد)"[٣] . ولعلَّ القارئ يتنبَّه إلى كثرة إعجابه بالأسلوبِ عند من أحبَّهم، فالأسلوبُ الأدبي ثوبُ زينةٍ في يوم عيد.

ولمَّا يزل الهويمل وفيًّا مع أستاذه العبودي، فقد علَّمه صغيرًا، واقترب منه كبيرًا، وأحبَّ لقياه، وعشق القراءة له: "وكلما نظرتُ إليه [العبودي]، وإلى ما تركه من

---

(١) تقميشات من السيرة الذاتية ٧، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ١٠ جمادى الأولى، ١٤٣٥هـ، العدد: ١٥١٣٩

(٢) المصدر السابق.

(٣) الفتى مفتاح. [جريدة الرائد، ورئيسها: أبو مدين].

كُتب؛ تذكرتُ الموسوعيين في القديم، كالجاحظ، والسيوطي، وفي الحاضر كالطنطاوي، وعبدالسلام هارون، وكلَّما قرأتُ في سِيَر أعلام النبلاء، أو في علم الطبقات؛ تبدَّت لي ملامحه"(١).

وإذا حسبتَ أنَّ الهويمل قد ابتعد عن أدباء مصر؛ فإنَّهُ يسرع في تبديد فِكرتك، ويُعيدك إليهم كَرَّة أخرى برأيه في كتابين لطه حسين، حين قال: "هلَك طه حسين، وفي نفسه أن يكمل كتابين من أنفس كُتبه: (الأيام) و (الفتنة الكبرى)، وليته أكمل الأول، ودسَّ الآخر في التراب؛ إذ لا طاقة لنا في أن نمسكه على هون"(٢)، ويعود مرَّة أخرى بذِكر طه حسين ومن معه من أدباء مصر، مُعجبًا مُتأثِّرا: "أُعجبتُ بفكر العقاد، وأسلوب الزيات، ومغامرات طه حسين، وبلاغة الرافعي، واحتدام مشاعر زكي مبارك، وعقلية أحمد أمين، وسخرية المازني"(٣)، فأمَّا العقاد فله عند الهويمل شأنٌ آخر، ومن يتتبَّع كتاباته؛ يجد الأثر الكبير الذي أوجده العقَّادُ في نفسه، وفكرِهِ، وقلمه، ومن هذا أنَّه حين أراد كتابة أطراف من سيرته؛ لاح العقاد بين ناظريه: "وحين هممتُ بالتقميش؛ تذكَّرتُ ما قرأتُ في كتاب (أنا)، وكتاب (في بيتي)، وكتاب (حياة قلم)، للمفكر العربي: (عباس محمود العقاد)، وهي تمثِّل جانبًا من حياته الفكرية... وليست اليوميات للعقَّاد بأجزائها الأربعة الضِّخام من قبل السيرة الذاتية، ولكنَّها تعليقات تشمل على النقد، والردِّ، والسؤال، والجواب لمختلف المعارف والقضايا"(٤)، فهو يريد أن يكتب سيرته الفكرية انطلاقًا من كتابات العقاد في كُتُب عدَّة. وقد أدهَشَه في

(١) الجهود الأدبية للعلَّامة العبودي، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ١٨ جمادى الأولى، ١٤٢٥هـ، العدد: ١١٦٠٤

(٢) المصدر السابق.

(٣) العمالقة بين التفاوت والتفاضل، صحيفة الجزيرة، الجمعة، ٣شعبان، ١٤٤١هـ، العدد: ١٧٣٤٣

(٤) تجربتي الثقافية وتحولاتها.

مواجهة الأفكار، إلَّا أنَّه لم يسلِّم لـه في كل شيء، فهو يقول: "والعقاد الذي شدَّني إليه صَلَفُه، وعنف مواجهته الأفكار والأنَاسيّ، ليس معصومًا من الأخطاء الفادحة، والانحياز السلبي، والدخول في اللعب السياسية أثناء المدِّ الشيوعي"(١).

ثُمَّ يُعلِّل التفاتته إلى كتابات العقاد وكُتبه، بقولـه: "وتجربة العقاد الفكرية تشكِّل الجذور الأولى لرؤيتي، وإن عدَلتُ عنها بعض الشيء، حين وصلتُ حبالي بالتراث، عبر موسوعاته الثقافية، وبناشِطي الفكر الإسلامي، كشيخ الإسلام ابن تيمية، و حين امتدت نظرتي إلى مصادره المعرفية الأهمّ، في (المحلَّى) لابن حزم، و(التمهيد) لابن عبد البرِّ -رحمهما الله- وحفظت التوازن في (المغني) لابن قدامة(٢)، وهو يقدِّم هنا صياغة أسلوبية لاعتراضه على بعض أفكار العقاد، التي عدَل عنها حين قرأ لأساطين الفكر الإسلامي. وهو – مع حُبِّه لـه – قد خرج من عباءته، خائفًا وجلًا؛ من لوثةٍ تختال في كتاباته. ويصف بعض كتاباته بأنَّها: (إطلاقات حمَّالة)، و (عبارات مفتوحة). وإن كان في هذا مشيرًا إلى اختلافه مع العقاد، إلَّا أنَّه يُظهر الحُبَّ له، فقد قرأ ردود خصومه من القدماء والمحدَثين، واعترض على بعض ما قالوه، أو أعرض عن رأيهم كلِّه، ويُبيّن هذا في قوله: "أعرفُ جيّدًا إلى أيّ مدى أختلفُ مع العقاد -رحمه الله- في سائر مواقفه، واتجاهاته، وإطلاقاته الحمَّالة، وكلماته المعاصرة، وعباراته المفتوحة على كل الاحتمالات، وأعرف جيّدًا أنَّه ليس من أهل الذِّكْر الذين يُسألون في أمر العقائد، والعبادات، والمعاملات، ولستُ بحاجة إلى المزايدة مع أي إنسان يلتقط مخالفة من هنا، أو جنحة من هناك، مما أفاض به خصومه المنافسون، أو الحاقدون، منذ حمْلة مصطفى صادق الرافعي-رحمه الله- في كتابه: (على السفود)، الذي لم يصرِّح فيه باسمه؛ لإيغاله بالذم البذيء، وحتى

---

(١) تجربتي الثقافية وتحولاتها.

(٢) المصدر السابق.

استدراكات الشيخ صالح بن سعد اللحيدان–حفظه الله– في كتابه: (نقد آراء ومرويات العلماء والمؤرخين على ضوء العبقريات)، وشتان بين جَوْر (الرافعي)، وموضوعية اللحيدان، وإن كنتُ أختلف مع الأوَّل كل الاختلاف، وأختلف مع الآخر بعض الاختلاف"[1]. ويؤكد تَتَبُّعه لما كُتب عن العقاد، بقوله: "وحين أقول: أكثر ما كُتب عنه، فإنني أعرف حجم ما كُتب عنه، ولا سيما بعدما استعرضتُ السلسلة (الببلوجرافية) عن أعلام الأدب المعاصر في مصر، التي أَعَدَّها فريق عمل، تحت إشراف الأستاذ: حمدي السكوت... وهو قد انفرد بإعداد ما يخص عباس محمود العقاد، في مجلَّدين نيَّفا على ألف ومئة وخمسين صفحة[2].

وإذا كان يختلف مع الرافعي (كلَّ الاختلاف)، حين نقدَ العقَّادَ في سفُّوده، فإنَّه قد وازن بينهما، ثُمَّ رجَّح كفَّة العقاد، بقوله: "وأذكر أنني قُلْتُ في قاعة المحاضرات في سنوات مضَتْ، يوم أن كان الطلاب فيها يُراجعون أساتذتهم، ويعترضون عليهم، ولا يترددون في التحفظ على بعض آرائهم: إنَّ العقَّادَ أفضلُ عندي من الرافعي، فهو الأزكى، والأذكى؛ لأنَّ إسلاميَّته تخاطب الفكرَ الغربي، فيما يخاطب حماسُ الرافعي العاطفةَ الدينية. ومشكلة الاثنين: أنَّ المشهد سلَّط الضوء على العقاد، وتابعه في كل دقيق وجليل، وكثر خصومه؛ لتأثيره على المشهد الثقافي، فيما غفلوا عن الرافعي، وحمدوا له صموده في وجهِ طه حسين"[3].

ثُمَّ نراه مُساندًا العقاد في الحملات التي كانت ضدَّه بقوله: "وعُنفُ العقَّاد شيء، وتوازنه في الآراء الفكرية شيء آخر، وما كنتُ لأتحدث عن توازنه؛ لولا ما

---

(١) التوازن في فكر العقاد (١-٢)، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٢١ رجب، ١٤٢٧هـ، العدد: ١٢٣٧٤

(٢) عقائد المفكرين في القرن العشرين.

(٣) المصدر السابق.

أشاهده من الجور والحيف، والتطرف في الآراء"[١] ، ثمّ يقول مدلِّلًا ومعلِّلا: "وخصوم العقاد حين يعْمدون إلى توهين فِكْرِه، يلتقطون بعض الجُمَل الحَمَّالة، ومُفكِّرٌ كالعقَّاد له أنساقه الثقافية، ورؤيته الشمولية، فهو حين يتحدث عن فلسفته، والمبادئ التي اهتدى إليها؛ يحدد ما يرُيد، ويجسِّد رؤيته، بحيث لا تلتبس على المنصفين، ولكنه حين يتحدث عن الآخرين من خلال مواقف مجتزأة؛ لا يُعوِّل على الدقَّة والتحديد"[٢] .

ولم يمنعه دفاعه عن الإنصاف والنقد المتجرّد، حين قال: "ولم يكن لهم مكان يُذكر في المشهد الأدبي: العقاد، والمازني، وشُكري، كان شُكري أقواهم في الشِّعر، وكان العقادُ أمكنَهم في النقد، فيما بدا المازني أكثرهم تواضعًا في الشِّعر والنقد... واتفقوا على ضرب الرموز؛ ليتعجلوا الظهور والحضور"[٣]، فقد وصَفه بتعجِّل الظهور والحضور! ويقول: "عندما وقع كِتَاب (الديوان) بيدي –لأول مرة– وفرغتُ من قراءته؛ أحسستُ أنني أمام كتابات متواضعة تجاوزها الزمن، وأيقنتُ أنَّ الريادة شيء، والجودة والتميز شيء آخر"[٤]. وقد خفض من قدر شِعره في الموازنة مع شوقي، بقوله: "والحقُّ أنَّ شوقيًّا صنعته موهبته، إنَّه شاعر بكلِّ ما تعنيه الكلمة من معنى، والعقاد الذي أصدر أحد عشر ديوانًا لم يبلغ مُدَّه ولا نصيفه"[٥]. وهو رأي نقدي شائعٌ عند جمهور النقاد.

ثُمَّ يُجيب الهويمل عن أسئلة حائرة في أنفس القُرَّاء بقوله: "قد يُفاجأ القراء بهذه الآراء، فأنا فيما أكتب من قبل أُثني على العقاد، وأُعلي من شأنه، وأعُدُّه من

---

(١) المصدر السابق.

(٢) عقائد المفكرين في القرن العشرين.

(٣) تقميشات من السيرة الذاتية ٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

رواد الأدب والفكر، ولمّا أزل ألمُّ بتراثه، وليس في ذلك تناقض، فحديثي عن العقاد– هنا– حديث عن دورِهِ في المدرسة، وعن دورِ المدرسة في المشهد، ولم أتجاوز بآرائي كتاباته في الديوان"[١] . فهذا إنصافٌ محمود، إذ إنَّ "من أخطر الشوائب التي تشوب بناء السيرة: التعصّب والتحيّز، فالإنصاف والتجرّد عن الهوى مهمة أصيلة، ينبغي أن تبقى نصب عيني كاتب السيرة" [٢].

وإذا كان الهويمل قد رجَّح كفَّة العقاد أمام الرافعي، وكفَّة شوقي أمام العقاد، فإننا نجده عادلًا بين الكفَّتين، في حديثه عن (طه) و (العقاد) حين قال: "طه حسين، يرتبط بالتاريخ من حيث الرواية، فيما يرتبط به العقاد من حيث الدراية، فالعبقريات للعقاد تختلف عن (الفتنة الكبرى) بجزأيها، وعن كتاب (الشيخان) لطه حسين[٣] .

ومن العجيب تصريحه بأنَّه قد أحبَّ العقاد؛ لأنَّه عجز عن فهمه! "وشدَّني إليه فكْره الجبَّار، وأنَفَته، وعجزي عن فهمه... بحقّ يُشكِّل تحدِّيًا لي"[٤]، وكان هذا العجز في الخطوات الأولى من سُلَّم المعرفة.

ولقد برَّر حُبَّه بقوله: "علَّمني العقاد الحفر حتى القاع، حين قال: "لأَن أقرأ الكتابَ ثلاث مرات، خير لي من أن أقرأ ثلاثة كتب"[٥]، فهو قد علَّمه التبصُّر والتدقيق في كلِّ ما يُكتب، كما علَّمه قطْعَ الوقت فيما يُفيد وينفع: "علَّمني الاعتزاز بالرأي دون الإصرار عليه... علَّمني أهمية القراءة، حتى لقد أُثر عنه أنه يقرأ ثماني عشرة

---

(١) تقميشات من السيرة الذاتية٣

(٢) السيرة تاريخ وفنّ، ماهر حسن فهمي، دار القلم، الكويت، ط:٢، ١٤٣٠هـ/١٩٨٣م، ص: ٨٦.

(٣) في عالم توفيق الحكيم وأنيس منصور.

(٤) علَّمني العقَّاد.

(٥) المصدر السابق.

ساعة في اليوم"[١]، وأكَّد غزارة قراءاته بقوله: "كلَّما خلوتُ بكتابٍ أو مكتبةٍ؛ تذكَّرتُ ما قاله العقاد عن بيته ومكتبته، وهو القارئ النهم الذي يقضي الساعات الطوال بين الكتب، يحلب أشطرها، ويخرجه عذبًا فراتًا سائغًا شرابه"[٢] .

ولقد رأينا فيما مضى من نقد أنَّ الهويمل لم يبرح المدرسة المصرية إلّا لماما، فقد قرأ فيها، واقترب من أعلامها، ووازن بينهم. وهذه الموازنة التي قد تُرجح كفة على أخرى، لا تُلغي المحبَّة، ولا تُبعِد المسافة، ولقد كان هؤلاء الأعلامُ أساتذةً في الأساليب التي أثَّرت في قُرَّائها، والهويمل منهم، فقد تشرَّبها لكنَّه لم يقلّدها، وإنّما ارتدى ثوبًا أسلوبيًّا خاصًّا به، ولم يكُن الهويمل في كتاباته إلَّا راسمًا برِيشة فنَّان، فاللّغة ثوبٌ أدبي مُطرَّزٌ بألوان البلاغة، والحروفُ طريقٌ مُعبَّدٌ للسالكين، لا ترى فيه غموضًا، أو ركاكة، أو تقعُّرًا و توعُّرا.

وهو كغيره من أرباب البيان الذين لهم سماتٌ أسلوبيَّة تراها فتعرفُ كاتبها، وإن كان اسمه غير مسطور. وإنَّ من بـ- المظاهر الأسلوبية في مقالاته السيريَّة، ما يلي:

١- الأسلوب القرآني:

والحقيقةُ أنَّه لم يتمثَّل بالقرآن الكريم في كتاباته السيريَّة وحدها، إنَّما تجد هذه الروح مبثوثة في كتاباته كلِّها قديمة وحديثة، ومن يتتبَّع مقالاته؛ فإنَّه لا يكاد يبرح مقالة إلَّا ويجد أثر القرآن الكريم بارزًا في أسلوبها. ومن الأثر القرآني الذي سطَّرته كتاباته السيريَّة، قوله: " ومع ذلك لم يتسور المحراب"، وهذا من قوله تعالى: {وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب} [سورة ص:٢١]. ومن

---

(١) علَّمني العقَّاد.

(٢) التطاول في زمن التطامن.

ذلك قوله: "المتشبث بأرباب القلم وما يسطرون"، وهي من قولـه تعالى: {ن والقلم وما يسطرون} [سورة القلم:١]. ونرى الأسلوبَ القرآنـيّ فـي قولـه: "فإنّـي ملـولٌ لا أصبر على كتاب واحد"، مأخوذًا من قولـه تعالى: {وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد } [سورة البقرة:٦١]. ومن الأثر القرآنـي قولـه: "حين أبرح أرض بـلادي"، وهـو مـن قولـه تعـالى: {فلـن أبـرحَ الأرض حتـى يـأذن لـي أبـي} [سـورة يوسف:٨٠].

وكذلك قوله: "وليته أكمَلَ الأوَّل ودسَّ الثاني في التراب"، من قوله تعالى: {أيمسكه على هون أم يدسُّـه فـي التراب} [سورة النحل:٥٩]. ومنـه كذلك: "وأعرف جيّدًا أنَّـه ليس من أهل الذِّكْر الذين يُسألون"، فهو من قولـه تعالى: {فاسألوا أهل الذِّكر إن كنـتم لاتعلمـون} [سـورة النحـل:٤٣]. [سـورة الأنبيـاء:٧]. ونـرى قولـه: "أنَّـني قـاب قوسين أو أدنـى مـن أرذل العمـر"، مـأخوذًا مـن قولـه تعالى: {قـاب قوسين أو أدنـى} [سورة النجم:٩].

وإذا كانـت هذه الأمثلـة مبْـرِزة أثـر القرآن الكريم علـى أسلوبه، فإنَّـا قد وجدنا للشِّعرِ نصيبًا من تضمينه، فهو سِمة أسلوبيَّة ظهرت في مقالاته السيريَّة:

٢- التَّضمين الشِّعري:

ومنـه قولـه: "يصـحبون الـدنيا بملـل وضـيق" مـأخوذٌ مـن قـول ابـن نباتـة المصري (ت٧٦٨هـ):

لـم يُبـقِ جـودك لـي شـيئًا أؤمّلـه تركتنـي أصـحبُ الـدنيا بـلا أمـلِ[1]

(١) ديوان ابن نباتة المصري، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص:٤١١.

ومن ذلك: قوله: "أهرب من لهيب الفتن، وأنغمس في روائح الفن"، فكأنَّه التمسَ من أرجوزة (ذات الأمثال) لأبي العتاهية (ت٢١٠هـ)، قوله:

إنَّ الشباب حُجَّةُ التَّصابي روائح الجنة في الشبابِ[١]

وهذا التضمينُ أقلّ من سابقه، إلَّا أنه يشي بجذورٍ قرائية شِعرية، وهي جذور أقصر من الجذور النثرية، كما اتَّضح فيما مضى من شواهد وأعلام.

وإذا كان (التضمين) سمة أسلوبيَّة في مقالاته السيريّة، فإنَّا قد وجدنا:

٣- لوازم أسلوبيَّة تكرَّرت في كتاباته، منها:

أ) كثرة استعمال الفعل (عرفتُ) ومشتقَّاته، ومنه قوله: "وعرفتُ في مطلع شبابي"، " عرفتُهُ في مطلع شبابي"، "وعرفتُه أكثر، حين أعددتُ رسالتي"، " استعرضت لمعرفتي به"، " زادت معرفتي به"، "عرفوا مبلغهم من الفن مثل معرفتي". وقد غلبَ ضميرُ المتكلم على ضمير الغائب في كتاباته السِّيرية، وهذا مسلكٌ من مسالك كتابة السيرة، إذ قد "جرى الكاتبون لسِيَرهم الذاتية في تقييدها على واحدٍ من مسلكين: فمنهم من يسوقها بضمير الغائب، كأنَّما يتحدَّث عن الغير، حتى إذا وقفْتَ في ثنايا كتابه؛ ظننتَ أنَّ المتكلِّم يتحدَّث عن شخصٍ آخر، ومنهم من يسوقها بضمير المتكلم" [٢]. وتكرار (المعرفة)، ولزومها في كتابته عامل نفسي، يعكس عشق المعرفة ولزوم حِلَقها.

---

(١) ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، د.ط، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص: ٤٩٥.

(٢) العلماء الذين ترجموا لأنفسهم (السيرة الذاتية)، بكر أبو زيد، ص: ٢٦.

ب) تكرار الفعل (مَرَّ)، كقوله: "ومررتُ بكل المراحل"، "لقد مررت بطفولة"، "لقد مرَّت مكتبتي بتطوّرات". وهو فِعل يُشير إلى الماضي، ويحمل في جوفه الذكريات.

ت) تكرار الفعل: (تقدَّمتُ)، ومن ذلك: " وكنتُ قد قدَّمتُ"، " لقد تقدَّمتُ برسالتي" ، "ومن ثم أقدمتُ على طباعتها "، " وقدَّمتُ عن بعضهم دراسات".

ث) كثرة إيراد كلمة (حقل)، مثل قوله: "ولا أتوفَّر على معرفة كافية عن حقله المعرفي"، "يضع كل كتاب في حقله الخاص به"، "إنَّه –بحقّ حقل مهم وممتع"، "فحقل السيرة الذاتية في مكتبتي من أوسع الحقول وأشملها".

ولعلَّ دارسًا نفسيًّا يقفُ على هذه اللوازم الأسلوبية، فقد يصل إلى نتائج متعلّقة بالمعرفة، ومرتبطة بالماضي، ومتطلّعة إلى الرِفعة. ومن ذلك أثر البيئة في تكرار كلمة (حقل)، التي لها دلالة زراعية، كما في دلالة زاويته المقالية: (ما وراء الكثيب)، التي قد تُشير –من طرف خفيّ– إلى البيئة التي نشأ بها وعاش.

الخاتمة:

إنَّ النتائج التي وصلت إليها الدراسة، قد تعطي جانبًا كبيرًا من جوانب السيرة، لكنَّها لا تكشف الحجاب، ففي سيرته جُدُرٌ لم تهدم، كما أنَّ في سيرته جوانب قد عرَضَ لها سريعًا، كحديثه عن قول الشِّعر: "وعندما قُلتُ في أحد لقاءاتي: إنني أقول الشِّعر ولست بشاعر، أثار ذلك الاعترافُ مشاعرَ معالي الأستاذ: عبدالواحد الحميد، وأشاد بهذا الموقف، وتمنى لو أن الأدعياء عرفوا مبلغهم من الفن مثل معرفتي، وكفّوا عن إغثاء النفوس بسرديات لاترقى إلى مستوى الفن السردي، ونظم لايؤبه به"(١). وفي سيرته ومضاتٌ سريعة تصفُ أحزانه، التي منها حديثه عن موت ابنته رحمها الله: "على أم سليمان التي انتُزِعت منّي كما يُنتزع القلب عنوة"(٢). وحديثه عن والديه وأحبابه رحمهم الله: "لقد ودّعتُ أبواي، وبكيت على من رحَلَ من أقارب، وأصدقاء، وزملاء، ماشاء الله لي أن أبكي، وظننتُ أنّ الألم والحزن دائمان، ولكن نعمة النسيان نثرت على الجراح بلاسمها"(٣).

ولم تكن هذه الإشارات مما يسري بقلمه في كثيرٍ من مقالاته، بل إنَّ ما أوردتُه في المباحث السابقة كان بيت القصيد، الذي من نتائجه:

بروز الملامح العائلية، والمجتمعية، والثقافية، إذ أبان في الأخيرة عن كُتبٍ قرأها، وأخرى قد طبَعها، وروى قبسًا عن مثقفين قابلهم، وآخرين أحبَّهم.

---

(١) تقميشات من السيرة الذاتية ٣.

(٢) ماذا أقول.. وقد ضاقت بي الحيل، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ١٤ جمادى الأولى، ١٤٣٩هـ، العدد: ١٦٥٦٠

(٣) المصدر السابق.

ولقد كان من نتائج هذا البحث: أثرُ المدرسة المصرية في تكوينه العلمي، وهذا ظاهر في كثرة الحديث عن العلماء، والمثقفين المصريين؛ ولعلَّ دراسته في الأزهرِ قد فتَّقت ملامح هذا التأثير.

ويظهر في هذه السيرة الجانب العلمي أكثر من الجانب الحياتي؛ ولعلّ من أسبابِ ذلك حذرُه الذي بيَّنه في مطلع البحث. ونجده في الجانب العلمي عاشقًا للكتاب، مُحبًّا للمكتبات، قاطفًا من أشجار المعارف المختلفة.

وإن كان من شيء بارز في سيرته، فهو حُبّه لعباس محمود العقاد، وهيامه بنتاجه، وإن اختلف معه قليلًا. ويلتمسُ حديثه عن العقاد باحثًا يرصد –بدقّةٍ– أثرَ العقاد في تكوينه الفكري والأسلوبي.

وإنّي لأتطلّع في نهاية البحث أن يكشفَ الهويمل عن سيرته التي انتظرها أحبابه. أطال الله عمره على طاعته، وختم لنا وله بالصالحات.

المصادر و المراجع:

أ- المصادر:

- أدب الرحلة عند العبودي، صحيفة الجزيرة، السبت، ٢٨ جمادى الأولى، ١٤٣٥هـ، العدد: ١٥١٥٧
- أدب المعدة، صحيفة الجزيرة، الجمعة، ١٧ شعبان، ١٤٤١هـ، العدد: ١٧٣٥٥
- تجربتي الثقافية وتحولاتها (١-٤)، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٣٠ شوال، ١٤٢٧هـ، العدد: ١٢٤٧٢
- تداعيات القراءات الدمشقية ١، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٢٢ رجب، ١٤٣٥هـ، العدد: ١١٦٦٧
- التطاول في زمن التطامن، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٢٢ محرم، ١٤٢٧هـ، العدد: ١٢١٩٩
- تقميشات من السيرة الذاتية٢، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٨محرم، ١٤٣٥هـ، العدد: ١٥٠٢٠
- تقميشات من السيرة الذاتية ٣، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ١٥ محرم، ١٤٣٥هـ، العدد: ١٥٠٢٧
- تقميشات من السيرة الذاتية ٤، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٦ صفر، ١٤٣٥هـ، العدد: ١٥٠٤٨
- تقميشات من السيرة الذاتية٦، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٣ جمادى الأول، العدد: ١٥١٣٢.
- تقميشات من السيرة الذاتية ٧، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ١٠ جمادى الأولى، ١٤٣٥هـ، العدد: ١٥١٣٩

- تقميشات من السيرة الذاتية ٨، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٢٤ جمادى الأولى، ١٤٤٥هـ، العدد: ١٥١٥٣
- تكوين المكتبات، صحيفة الجزيرة، الجمعة، ٢٢ مايو، ٢٠٢٠م، د.ع.
- التوازن في فكر العقاد (١-٢)، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٢١ رجب، ١٤٢٧هـ، العدد: ١٢٣٧٤
- الجاسر الحاضر الغائب، صحيفة الجزيرة، السبت، ٢٤ نوفمبر، ٢٠١٨م.
- الجهود الأدبية للعلَّامة العبودي، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ١٨ جمادى الأولى، ١٤٢٥هـ، العدد: ١١٦٠٤
- الخويطر وسيرته الغرائبية، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٢٥ رجب، ١٤٣٤هـ، العدد: ١٤٨٥٩
- الدامغ في يوم تكريمه، صحيفة الجزيرة، الخميس، ٢٣ صفر، ١٤٢٧هـ، العدد: ١٢٢٢٩
- عفا الله عن طه حسين، ما أظلمه لنفسه، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٢محرم، ١٤٣٥هـ، العدد: ١٥٠١٣
- عقائد المفكرين في القرن العشرين، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٢٩ محرم، ١٤٢٧هـ، العدد: ١٢٢٠٦
- علَّمني العقَّاد، صحيفة الجزيرة، السبت، ١ شعبان، ١٤٤٠هـ، العدد: ١٦٩٩١
- العمالقة بين التفاوت والتفاضل، صحيفة الجزيرة، الجمعة، ٣شعبان، ١٤٤١هـ، العدد: ١٧٣٤٣
- فن السيرة، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط:١، ١٩٩٦م.
- في عالم توفيق الحكيم وأنيس منصور، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٣ نوفمبر، ٢٠١٥، د.ع.

- في مكتبتي، صحيفة الجزيرة، الجمعة، ٨ رمضان، ١٤٤١هـ، العدد: ١٧٣٧٣
- قافية الحياة، صحيفة الجزيرة، السبت، ٢٣ رجب، ١٤٤٠هـ، العدد: ١٦٩٨٤
- قصَّتي مع حديث الأربعاء ١-٢، صحيفة الجزيرة، الجمعة، ٥ ذو القعدة، ١٤٤١هـ، العدد: ١٧٤٢١
- كل من لاقيت يمشي وجِلا، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ٣٠ شعبان، ١٤٣٤هـ، العدد: ١٤٨٩٤
- لمحات من الذاكرة (١-٢)، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ١٧ شوال، ١٤٤١هـ، العدد: ١٧٤٠٦
- ماذا أقول.. وقد ضاقت بي الحيل، صحيفة الجزيرة، الثلاثاء، ١٤ جمادى الأولى، ١٤٣٩هـ، العدد: ١٦٥٦٠

ب- المراجع:

- أدب السيرة الذاتية، عبد العزيز شرف، الشركة المصرية العالمية للنشر، د.ط، ١٩٩٨م.
- الترجمة الشخصية، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط:٤، د.ت.
- ديوان ابن نباتة المصري، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
- ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، د.ط، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- السيرة تاريخ وفنّ، ماهر حسن فهمي، دار القلم، الكويت، ط:٢، ١٤٣٠
- السيرة الذاتية في الأدب السعودي، عبدالله بن عبدالرحمن الحيدري، دار طويق للنشر والتوزيع، ط:٢، د.ت.
- السيرة الذاتية في الأدب العربي-فدوى طوقان جبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، المؤسسة العربية للدارسات والنشر، ط:١، ٢٠٠٢م، تهاني

شاكر.

- العلمـاء الـذين ترجمـوا لأنفسـهم (السـيرة الذاتيـة)، بكـر أبـو زيـد، د.د.، ط:١، ١٤٠٥هـ.
- فن السيرة، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط:١، ١٩٩٦م.
- مقـال: كبـار الصـحفيين... كبـار الـروائيين، سـمير عطـا الله، الشـرق الأوسـط، السبت: ٧ محرَّم، ١٤٤٦هـ/ ١٣ يوليو، ٢٠٢٤م.